الإمارة الأموية الأندلسية
وأهل العلم

وربما كان تبيُّن الأمويين فى الأندلس لأهمية الجانب الدينى فى تفكير شعبهم الأندلسى وتقديرهم لأهميته من أكبر الاكتشافات التى مكنت لدولتهم من الاستمرار . وربما كان هذا الاكتشاف مجرد مصادفة سعيدة ، وربما كان أيضاً نتيجة فهم ذكى لطبيعة الشعب الأندلسى ، ولكن الحقيقة الواقعة هى أن هذا الاكتشاف تم أثناء السنوات القصيرة التى حكمها هشام ابن عبد الرحمن الداخل ، وهى سنوات سبقها تمهيد طويل فى أثناء حياة أبيه عبد الرحمن الداخل ، فقد كان هشام وأخوه سليمان متنافسين على ولاية العهد ، يجتهد كل منهما فى تمهيد الطريق لنفسه ، حتى إذا توفى الأب وسنحت الفرصة للإمارة استطاع أن يحوزها دون أخيه .

وكان سليمان هو الأكبر ، وكان بطبيعته رجل حرب وسياسة ، وكانت وسيلته فى التمهيد لنفسه كسب الأنصار بين الجند ورجال الحزب الشامى المسيطر على شئون السياسة ، ولم يكن له ميل إلى العلم أو الفقه ، فمال عنه الشيوخ وصوروه فى صورة رجل عابث جاهل . أما هشام فقد

obeikandi.com

كـان أندلسى المولد والنشـأة ، وكـان مـتـديناً مـيـالاً إلى العلم والاسـتـمـاع بطبعه، فاجتذب الفقهاء إليه وأحبوه .

ويذهب بعض مـراجعنا إلى أن عبـد الرحـمن الداخل أوصى بالعرش لهشام دون أخيـه، ولكن الحـقيـقـة أنه لم يتـخذ قـراراً فى الأمـر ، وترك الموضـوع سبـاقـاً بين الأمـيـرين ؛ قـال ابن عـذارى : « وقيـل : إن عبـد الرحـمن بن معاوية ، رحـمه الله ، لما حـضرتـه الوفاة ، وابنه هشام بماردة وابنه الآخر سليمان بطليطلة ، وكَّل ابنه عبد الله المعروف بالبلنسى وقال له : من سبق إليك من أخويك فَارْمِ إليه بالخاتم والأمر ، فإن سبق إليك هشام فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه ، وإن سبق إليك سليمان فله فـضل سنه ونجـدته وحب الشـاميـين له . فقـدم هشـام من ماردة قـبل سليمـان ، فنزل بالرصافة ، وخـاف من عبد الله أخيه ـ إذ صار متمكناً من القـصـر والأمـوال ـ أن يدافـعـه، فـخـرج إليـه أخـوه عـبـد الله وسلم عليـه بالخلافة، ودفع إليه الخاتم كما أوصاه أبوه ، وأدخله القصر »(١) .

وإنما أطلنا الوقوف عند هذه الحادثة لأننا نظن أنها ذات أهمية خاصة لموضـوعنا، فإن هشـامـاً كـان رجـلاً مـتـديناً شديد التـقى ، ولكن تقـاه لم يصرفه عن الحرص على الدنيا والتدبير لمصالحه فيها ، فقد كان وهو

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ٢/٦٢ ـ ٦٣ .

openkanaf.com

أمير ينفق الساعات فى شرفة القصر يرقب الداخلين فيه والواردين إليه ، وكان مسارعاً أبدا إلى كشف عورات أخيه . ولو كان هشام تقياً خالص التقى ـ كما تصوره المراجع ـ لسلم بأن أخاه الأكبر أحق بالعرش ، ولكن تقى هشام كان من طراز تقى فقهاء كثيرين ستعرفهم الأندلس فى أيامه وبعدها من أمثال يحيى بن يحيى ، وأصبغ بن خليل : تقى ذكى حريص يزيد نصيب صاحبه من الدنيا ولا ينقصه .

وَسِيَرُ أئمة المالكية الأوائل من أمثال أشهب بن عبد العزيز ، وعبد الرحمن بن القاسم ، وعبد السلام بن سعيد سحنون ـ تعطينا نماذج من هذا التقى الذكى الحريص الذى كان من أبرز شمائل مالك وأكثر ما حببه إلى الطامحين من تلاميذه ، وهو الذى جعل للمالكية فى البلاد التى سادت فيها دولة داخل الدولة جزءا من السلطان السياسى على الأقل .

هذا التشابه بين خلق هشام الرضى وخلق هذا الطراز من الفقهاء كان من أكبر الأسباب التى ثبتت أقدام المذهب المالكى فى الأندلس ، فإن هشاماً ـ وقد رأى ما صار إليه بفضل العلماء والركون إليهم ، وما صار إليه أخوه بسبب انصرافه إلى أهل السياسة وحدهم ـ مضى فى هذا الطريق ، فأصبح فقيهاً أميراً ، ولم ير مانعاً من أن يسمح للفقهاء بشىء من السلطان إلى جانبه ، مع الحرص على أن يكون هذا الجانب الذى يتنازل عنه مضيفاً إلى جاه الإمارة زائداً فى سلطانها .

وليس أدل على ذلك من أنه ـ رغم وجود فقهاء كبار ذوى علم غزير من أمثال محمد بن يحيى السبأى(١) . وسعيد بن أبى هند(٢) وزياد بن عبد الرحمن اللخمى المسمى زياد شبطون(٣) ويحيى بن مضر(٤) وعيسى

---

(١) يذهب ابن الفرضى (رقم ١٠٩٤) إلى أنه توفى فى صدر أيام عبد الرحمن الداخل ، وهو تحديد غير دقيق ؛ لأنه يفهم من ترجمة الفرضى له أنه رحل إلى المشرق بعد أن استقر سلطان عبد الرحمن الداخل ، أى فى منتصف حكمه حوالى سنة ١٦٠ ، ولابد أنه قضى بضع سنوات فى المشرق ، وعاد حوالى سنة ١٦٥ وعاش مدة طويلة بعدذلك حتى أخذ الناس عنه واشتهر أمره ، ولا يمكن أن يقال لهذا إنه مات فى صدر إمارة عبد الرحمن الداخل ، والغالب أنه كان موجوداً أيام هشام ابنه . وترجمة ابن الفرضى للسبأى تشكك حتى فى رحلته إلى المشرق .

(٢) يسمى أيضاً عبد الوهاب بن أبى هند (ابن الفرضى ، رقم ٤٦٧) ويذكر ابن الفرضى أنه توفى فى صدر إمارة عبد الرحمن الداخل ، وهذا غير صحيح ؛ إذ أنه من الثابت أنه كان حياً أيام هشام ابنه ، فقد روى ابن القوطية فى تاريخ افتتاح الأندلس (ص٤٤) أن هشاماً مر به ، فقام إليه وحياه ، فقال له هشام : لقد ألبسك مالك ثوباً جميلاً .

(٣) ترجم له ابن الفرضى مرتين ، واحدة تحت زياد (رقم ٤٥٦) ومرة تحت شبطون (رقم ٥٩٦) ، والأولى أطول وأوفى . ويذكر ابن الفرضى أن هشاماً عرض عليه القضاء فهرب ، فاكتفى بالتأسف على ذلك ، فى حين أغلظ على مصعب بن عمران وهدده بالقتل إن لم يقبل .

(٤) قتله الحكم الربضى بعد إخماده هيج الربض الأول (سنة ١٨٩ هـ/ ٨٠٤ م) .

obeikandi.com

ابن دينار[١] وطالوت بن عبد الجبار ـ لم يفكر فى أن يعهد لأحد منهم فى قضاء قرطبة بعد وفاة القاضى معاوية بن صالح ، بل عهد فى القضاء إلى المصعب بن عمران مع أنه لم يكن من كبار الفقهاء ، وإنما كان ـ كما يقول ابن القوطية ـ : «شيخاً من العرب الشاميين له فضل وصلاح كثير» ، وكان قد رفض ولاية القضاء لعبد الرحمن الداخل ، و لكن هشاماً هدده بالقتل إذا لم يقبل[٢]، فتولى القضاء ؛ وبعد موته تولى القضاء كاتبه محمد ابن بشير ، ولم يكن كذلك من كبار الفقهاء .

وهذا المسلك الحريص من جانب هشام ليس بغريب علينا ، فقد كان هشام ـ كما ذكرنا ـ ذا اهتمام شديد بنفسه وصالحه رغم ظاهر الورع والتقى الذى غلب عليه ، ولو كان من التقى بحيث تصوره المراجع لما أقدم ـ وهو أمير ـ على قطع لسان الشاعر أبى المخشى (عاصم بن زيد بن يحيى بن حنظلة) عقاباً له على التعريض به فى قصيدة نظمها فى مدح أخيه سليمان بن عبد الرحمن ، وهى حادثة شنيعة حاول من ترجموا له

---

(١) توفى سنة ٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م ، وهو من كبار تلاميذ ابن القاسم الأندلسيين ، وكان محمد بن عمر بن لُبابة يسميه فقيه الأندلس ، ويقول ابن الفرضى (رقم ٩٧٣) : إن الفتيا كانت تدور عليه ، لا يتقدمه فيها فى وقته أحد ... وكان أفقه من يحيى بن يحيى على جلالة قدر يحيى . وكان له دور كبير فى هيج الربض .

(٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٤٣ ـ ٤٤ .

من الفقهاء إخفاءها ، فلم نجد تفصيلها الوافى إلا فى كتاب (الإحاطة) لابن الخطيب(١) .

ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه الحكاية بلغت مالكاً فلم تصرفه عن الإعجاب بهشام والثناء عليه ، بل اكتفى بالانتفاع بها فى تحديد دية قطع اللسان ، فأفتى بأن يُسْتَأنى فى أدائها سَنَةً ، فربما نبت من اللسان شىء ، إذ يقال إن شيئاً من لسان أبى المخشى عاد فنبت . ذلك لأن مالكاً كان رجلاً عملياً شديد الاهتمام بنشر مذهبه ، ولم يكن من « العملية » فى شىء أن يُدين حاكماً بلغه عنه أنه يثنى عليه وعلى مذهبه ويؤيد الآخذين به ويقربهم ..

الدولة الأموية الأندلسية فى حاجة إلى تأييد شرعى :

وقد أثبت الدكتور محمود على مكى فى بحثه الذى أشرنا إليه أن هشاماً لم يعهد إلى أحد من كبار المالكيين فى منصب كبير ، وأن سيادة

---

(١) وردت هذه الحكاية فى الإحاطة (مخطوط الاسكريال ، رقم ١٦٧٣ ص٣٥١ ـ ٣٥٢) ونشر نصها الدكتور محمود على مكى فى بحثه عن أصول الثقافة المشرقية ودخولها الأندلس :

Cf : M. A. MAKKI, Ensayo sobre apotaciones Orientales en la España Musulmana (R. I. E. I. M.) vols IX - X pp. 1-167 .

وقد اعتمدنا على هذا البحث الأصيل فى أجزاء كثيرة من هذا المقال .

المالكية فى الأندلس تبدأ على الحقيقة بعد هيج الربض[1] ، والواقع أن هشاماً كان يوقر المالكيين ويقربهم ويفيض عليهم عطاياه ، ولكنه كان يتحاشى أن يعهد إليهم فى المناصب الكبرى ؛ لأنه ـ بما ركب فى طبعه من الحرص على سلطانه ـ كان يشعر بالطموح السياسى الذى ملأ نفوس الظاهرين منهم ، وهو طموح سيظهر بصورة واضحة أيام ابنه الحكم الربضى ، فاكتفى بتكريمهم واستشارتهم واتخاذ نفر منهم أهل شوراه ، وكان فى نفس الوقت ينافسهم فى مظاهر التقى والورع والحرص على رعاية الدين وعمارة المساجد وتعميرها بالمصلين ، ولكن عندما نسمع أنه مر ذات يوم بسعيد بن أبى هند ، فقام له هذا وحياه فقال له : « لقد ألبسك مالك ثوباً جميلاً »[2] نشعر أن هذه العبارة تحمل معنى آخر غير التكريم الصرف ، وكأن هشاماً أراد بها : يكفيك ما ألبسك مالك إياه ، ولا حاجة بك إلى تكريم أكثر من ذلك .

وكان هشام فى أشد الحاجة إلى تأييد هؤلاء الفقهاء ، فإن الإمارة التى أنشأها أبوه كانت ـ رغم استتباب أمرها وتوافر أسباب القوة السياسية والعسكرية لها ـ فى حاجة إلى سند شرعى ، فهى مهما بلغت قوتها لم تخرج ـ من الناحية الشرعية الصرفة ـ عن كونها إمارة خارجة على

---

(١) انظر ص٩٣ ـ ٩٤ من البحث السابق .

(٢) ابن القوطية ، ص٤٤ .

الخلافة العباسية ، أى : على الخلافة الإسلامية العامة التى استقر لها الأمر فى كل بلاد الإسلام عدا الأندلس ، وهذا بدوره كان يفتح الباب لأى منافس للبيت الأموى فى الأندلس يحصل على تأييد تلك الخلافة العامة ، وقد أحس بذلك عبد الرحمن الداخل ، فدعا للخليفة العباسى زمناً، ولم ينصرف عن ذلك إلا عندما قضى على معظم الثائرين عليه وأحس أن الحكم قد استقر له فى الأندلس(١) ، ومع ذلك فإن عبد الرحمن لم يتخذ لقب خليفة أو أمير ، بل كان يخاطب بلقب « ابن الخلائف » ، وظلت العملة تضرب على أيامه وأيام ابنه هشام باسم الخليفة العباسى حتى يشعر الناس أنهما ـ رغم كل شيء ـ يحكمان باسم رئيس الجماعة الإسلامية .

ولكن هذا الوضع لم يكن ليمكن استمراره طويلاً ، فقد كان واضحاً أن أمراء قرطبة لا يدينون للخلافة العباسية بأى ولاء ، بل كانوا يعادونها

---

(١) يذهب ابن الأبار فى « الحلة السيراء » إلى أن الذى حفزه على قطع الدعوة للعباسيين أحد أقاربه المسمى عبد الملك بن عمر المروانى ، وربما كان هذا صحيحاً ، ولكن يلاحظ أن عبد الملك هذا لم يشر بهذا الرأى ويتعصب له إلا بعد أن قضى هو وابنه عبد الله على آخر ثورة كبيرة قام بها اليمنيون للقضاء على إمارة عبد الرحمن ، وهى التى قادها أبو الصباح بن يحيى اليحصبى سنة ١٥٧ أو ١٥٨ / ٧٧٤ أى : بعد مضى نحو عشرين سنة من إمارة عبد الرحمن .

عداء صريحاً ويحاربون أولياءها دون هوادة ، وكان لا بد لهم - والحالة هذه - من سند شرعى ؛ لأن القرن الهجرى الثانى لم يكن يقبل فكرة الولاء لإمارات خارجة عن إجماع المسلمين ؛ ولهذا كان لابد من البحث عن حل لهذه المشكلة الشرعية الأساسية ، فإن الجماعات العربية فى الأندلس كانت عنيدة ، قوية المراس ، شديدة اليقظة ، مريرة النقد ، وكانت جماعات المولدين وحديثى العهد بالإسلام فى حاجة إلى سلطان روحى غالب ، لكى تُسلِس قيادها لحاكمها ، وهذه الظاهرة الأخيرة كانت أظهر بين البربر : كان لابد أن تأخذ الرياسة فى نظرهم طابعاً دينياً حتى يسلموا بحقها ، وفى عهد عبد الرحمن الداخل نفسه ظهر بين جماعات البربر دَعِىٌّ يسمى شَقَىٌّ بن عبد الواحد انتسب إلى السيدة فاطمة ، واتخذ لقب الإمامة ، وتبعته جماعات كبيرة من البربر ، وامتد سلطانه حتى كاد يُخرج غرب الأندلس كله من يدى عبد الرحمن الداخل ، ولم يستطع هذا القضاء عليه إلا بعد حروب طويلة دامت تسع سنوات (١٥٢ - ١٦٠ / ٧٦٨ - ٧٧٧)(١) .

كانت الإمارة القرطبية - إذَنْ - فى حاجة إلى سند شرعى أو روحى يضفى على سلطانها السياسى هيبة وشرعية لا غنى عنهما ؛ لأن التفكير

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ٢/٥٤ - ٥٥ .

obeikandi.com

السياسى عند المسلمين لم يكن قد تدهور إلى ما وصل إليه فى القرن الرابع مثلاً ، عندما أصبح الناس يقبلون سلطاناً سياسيًّا صرفاً ، ولم يكن هناك مفر من إيجاد ذلك السند الشرعى فى بلد مثل إسبانيا ارتبط فيه مفهوم الحاكم الدنيوى بفكرة القداسة الدينية على مر العصور .

الأمويون والمذهب المالكى :

خلال حكم هشام الرضا بدأت تتجمع فى قرطبة وطليطلة وغيرهما من بلاد الأندلس جماعات صغيرة من فقهاء المالكية ، وسواء أخذ هؤلاء عن مالك حقًّا أو أخذوا عن بعض أصحابه فى مصر ثم زعموا أنهم تلاميذ مباشرون لإمام دار الهجرة ، فقد أخذ الظاهرون منهم بأخلاق مالك وشمائله كما أخذوا موطأه ، والمالكية امتازت بأنها لم تكن مذهباً فقهيًّا فحسب ، بل مذهباً سلوكيًّا أيضاً ، فمالك كان رجلاً مهيباً جليل السمت ، يجلس لتلاميذه وكأنه سلطان عظيم بين رعيته ، حتى لقد لقبه الناس بأمير المؤمنين فى الحديث ، وقد قال أحد تلاميذه الأندلسيين : إنه ما هاب أحداً كما هاب عبد الرحمن الداخل ، فلما لقى مالكاً تضاءلت فى نفسه هيبة عبد الرحمن إلى هيبة مالك ، وكان مالك نفسه يقول : إنه يُعلِى بهذه المهابة جاه العلم .

ومحافظة على جاه العلم لم يتول مالك للعباسيين وظيفة ، بل ظل شخصية رفيعة عالية يرمقها الخلفاء أنفسهم باحترام عظيم ، وهذه صورة

تعجب كل طالب علم طموح ، فهى تفتح أمامه طريقاً واسعاً للجاه والسلطان والثروة إذا أراد ، وإذا نظرنا فى تراجم شيوخ المالكية الأوائل ـ أولئك الذين أخذوا عن مالك مباشرة وأولئك الذين أخذوا عن تلاميذه المباشرين ـ لاحظنا أن معظمهم عرفوا كيف يقيمون لأنفسهم فى البلاد التى استقروا فيها سلطاناً روحياً معنوياً وسياسياً دون أن يثيروا مخاوف أهل السلطان ، ويتجلى ذلك فى سير سلمة بن دينار الأعرج ، وعبد الرحمن بن القاسم العتقى المصرى ، وعبد الله بن وهب بن مسلم القرشي، وأشهب بن عبد العزيز بن داود القيسى المصرى ، وشَقَران بن على القيروانى ، وعبد الله بن فروخ الفارسى القيروانى ، وعَلِيّ بن زياد التونسى .

ووصل إلى هذه المكانة فى الأندلس كبار الفقهاء الذين عاصروا هشام بن عبد الرحمن وابنه الحكم الربضى ، وقد ذكرنا أعلامهم ، وقد كانوا جميعاً مالكيين أصلاء ، أى : جامعين بين علم مالك وذكائه وكياسته. وتراجمهم تدل على أنهم كانوا « أمراء » فى العلم ، لهم فى قلوب الناس مكانة كبرى ، فهم تلاميذ إمام دار الهجرة وحفاظ الحديث والسنة ، ورجال الشرع والقانون الذين درسوا الموطأ وأرشدوا الناس إلى الطريق القويم فى الدين والمعاملات ، وهم كانوا يستطيعون ـ إذا شاءوا ـ أن يضفوا على سلطان الأمويين فى الأندلس تلك الصبغة الشرعية الدينية التى كانوا فى أشد الحاجة إليها .

وتبدو حاجة الأمويين فى الأندلس إلى هذا التأييد فى صورة واضحة فى موقف عبد الرحمن الداخل ثم ابنه هشام من الفقهاء والعلماء . فقد كان عبد الرحمن الداخل ثم ابنه هشام من الفقهاء والعلماء . فقد كان عبد الرحمن عنيفاً مع رعيته ، سريعاً إلى العقاب والبطش لأقل بادرة عصيان أو مخالفة ، وله فى ذلك أخبار مشهورة ، ولكنه كان طويل الصبر واسع الحلم مع الفقهاء ، بل بلغ الأمر بقاضيه عبد الرحمن بن طريف اليحصبى أن تحدى أمره تحدياً صريحاً ، فأصدر حكمه فى قضية كان عبد الرحمن قد طلب إليه أن يستأنى فيها مجاملة لصنيعة من صنائعه ، فأصدر القاضى حكمه ونفَّذه فى الحال بمحضر الفقهاء والعدول .

ولو فعل أى رجل آخر هذا لما كان نصيبه من عبد الرحمن إلا العقاب الشديد ، ولكن هذا استمع إلى القاضى فى صبر طويل ، ولم يكتف القاضى بالثبات على رأيه بل تعدى ذلك إلى لوم عبد الرحمن ، فقال : «أيها الأمير ، ما الذى يحملك على أن تتحامل لبعض رعيتك على بعض، وأنت تجد من ذلك وجهاً أن تُرضى به من تُعْنَى به من مالك؟»(١) . وقد أخذ عبد الرحمن بهذا الرأى فعلاً ، فاشترى الضيعة المختلف عليها من ماله وأهداها إلى صنيعته .

---

(١) الخشنى : تاريخ قضاة الأندلس ، ص٤٣ ـ ٤٤ .

وقد وقف عبد الرحمن موقفاً شبيهاً بهذا مع المصعب بن عمران حين رفض أن يتولى له القضاء ، ومن معاوية بن صالح عندما تأخر عبد الرحمن فى رد القضاء عليه . وعندما رفض المصعب بن عمران أن يتولى القضاء لهشام اعتذر هذا له عن أخلاق أبيه التى منعت مصعباً من أن يتولى له القضاء ، وقال له إنه على غير أخلاق أبيه ، ثم اشترط على نفسه شرطاً قاسياً ، قال له : « .. ونفسى طيبة عليك لصلاح أمور المسلمين ، ولو وضعت المنشار على رأسى لم أعترضك »(١) .

وهذا كلام يشبه الاستعطاف ، وقد كان هشام مضطراً إليه حتى يضمن تأييد هذا الجانب الدينى الذى يمكّنه من الحكم فى اطمئنان .

وبهذا اللين لأهل الدين والفقهاء استطاع هشام أن يضفى على نفسه صورة الأمير الورع التقى الذى يسلك فى حياته سيرة النساك ، ومضى الفقهاء ينشرون هذه الصورة بين الناس ليستقر فى أذهانهم أن حاكمهم ، وإن كان خارجاً على الجماعة ، فإنه أمير تقى عادل يسير فى حياته وحكمه سيرة الصحابة والتابعين ؛ ومن ثم فإن طاعته واجبة ، وهذا

---

(١) الخشنى ، ص٤٤ ، وابن القوطية : افتتاح ، ص٤٤ .

ما رمى إليه هشام[1] .

ومات هشام بعد حُكم قصير لم يبلغ الأعوام الثمانية (٧ سنوات هجرية و١٠ أشهر و٨ أيام) وخلفه ابنه الثانى الحكم متخطياً أخاه عبد الملك ، وكان أسن منه ، وكان شاباً فى السادسة والعشرين من عمره ورث من جده عبد الرحمن الداخل الجرأة والحزم والسرعة فى مواجهة الأخطار، ومن أبيه هشام الدهاء الذى اتصف به بنو أمية جميعاً ، والحرص على صالح البيت الأموى الذى يمثله ، ولكنه كان عنيفاً قاسياً جباراً شديد الاعتداد بنفسه وبذكائه .

بيد أن أمراً هامًّا فات هذا الذكاء وهو طبيعة الشعب الأندلسى الذى تولى أمره ، وهى طبيعة عنيدة صلبة لا تقبل من الحاكم تصرفاً مطلقاً ، وتحرص على أن يكون للدين مكان ظاهر فى خلقه .

---

(١) يصور لنا ابن عذارى (٢/٦٥ ـ ٦٦) رأى الناس فى هشام تصويراً دقيقاً : « كان رحمه الله بسط البنان ، فصيح اللسان ، وسيع الجناب ، حاكماً بالسنة والكتاب ، قبض الزكوات من طرقها ووضعها فى حقها ، لم يأخذه فى الله لوم ولا تعلق به ظلم .. ولم تعرف عنه هفوة فى حداثته ولا زلة فى صباه .. إلخ » . وهو حكم ظاهر التزويق ، فقد رأينا ما فعله بالشاعر أبى المخشى ، ثم إن كتاب « فتح الأندلس » لمؤلف مجهول يصفه بأنه كان قاسياً مستهتراً بالدماء ، وأن أباه عبد الرحمن كان يلومه فى ذلك لوماً شديداً ، وقد أشار دوزى إلى شخصية هشام المزدوجة فى تاريخه . انظر جـ١ ص٢٨٥ ، وانظر بحث إلياس تيريس :

ELIAS TERES, EL poeta Abu - l - Majsi y Hassana La Tamimiyya, Al- Andalus, XXVI (1961) fasc. 1, pp. 229 sqq .

هيج الربض : حادث فاصل
فى تاريخ البيت الأموى الأندلسى

وهذا الذى فات الحكم أفسد عليه معظم ثمرات خصاله الإيجابية الأخرى ، فقضى معظم حكمه فى القضاء على ثورات ومؤامرات كان من الممكن تلافى الكثير منها لو أن الحكم فهم فى مطالع حكمه ما تكفلت الأيام بإفهامه إياه خلال بقية أيامه .

ذلك أن الحكم - بعد انتصاره على عَمَّيْهِ المنافسين له : سليمان ، وعبد الله المعروف بالبلنسى ، ودخول هذا فى طاعته بعد ذلك - حسب أن الحكم يقوم على القوة وحدها ، فاهتم بجنده اهتماماً خاصاً ، واستكثر من الجند المرتزق والحرس الخاص يأتى بهم من أى طريق ، وبلغ به الاتجاه فى هذا الطريق أن أنشأ لنفسه حرساً من الصقالبة أقام رئيساً لهم ربيعاً القومس « متولى المعاهدين بالأندلس من النصارى ، وكان حظيًّا فى رجاله ، سوغه افتراض المعاون والمغارم على المسلمين »[1] ، فأضاف

---

(١) ابن الخطيب : أعلام الأعلام ، ص١٥ .

أما أن الحكم أقام ربيعاً رئيساً للحرس فقد ذكره ليڤى پروفنسال اعتماداً على قطعة من مقتبس ابن حيان كانت لديه ، وقد اختفت هذه القطعة الآن . انظر :

LÉVI PROVENÇAL, Histoire de l'Espagne Musulmane, I, 164 et note 2

obeikandi.com

إلى استنكار الناس لهذه الضرائب نفورَهم من أن يتولى جبايتها منهم نصراني.

في هذا كله لم يستشر الحكم شيخاً أو فقيهاً ، بل لم يكن لهؤلاء في نفسه تقدير كبير ، في حين أن جمهور الناس كانوا يعتبرونهم رؤساءهم ومرشديهم . نعم إنه كان يستدعي الفقهاء إلى قصره ليسألهم في بعض ما أهمه ، ولكنه عندما احتاج إلى قاض بعد وفاة المصعب بن عمران لم يعرض الأمر عليهم ، بل على رجل من أهل بيته هو أبو العباس المرواني، فأشار بمحمد بن سعيد بن بشير كاتب المصعب بن عمران ، فأخذ برأيه .

وكذلك لم يستشر الحكم الفقهاء في الضرائب التي قررها باسم المعاون والمغارم ؛ وعلى رغمهم عين ربيعاً القومس في جبايتها ، أضف إلى ذلك إيقاع الحكم بأهل طليطلة وإنزاله مذبحة ذريعة بهم لإرغامهم على الطاعة ، وحروبه الطويلة مع عميه سليمان وعبد الله ، وسجنه عميه مسلمة الملقب بكُليب وأمية ابني عبد الرحمن الداخل ، ثم انصرافه إلى اللهو والصيد ، ومحاولته أخذ نفر من أبناء سراة قرطبة ؛ ليكونوا خصياناً في قصره ، كل ذلك أثار عليه غضب الناس ، فاجتهد نفر من الفقهاء في تأليبهم عليه وتشكيكهم في استحقاقه للإمارة وتهوين عزله عن الحكم .

هذه ـ فى الغالب ـ هى الأفكار التى دفعت إلى المؤامرة التى يذكر المؤرخون أن الحكم كشف أمرها فى جمادى الآخرة ١٨٩/ مايو ٨٠٥ ، وهى مؤامرة اشترك فيها نفر كبير من كبار أهل قرطبة ورجال القصر والفقهاء ، وكان غرضهم نقل الأمر من الحكم إلى ابن عم له هو القاسم ابن محمد بن المنذر بن عبد الرحمن الداخل ، وفاتحوا هذا الأمير فى الأمر، ولكنه خانهم وكشف أمرهم للحكم ، فقبض على المشتركين فيها وأعدم اثنين وسبعين منهم وصلبهم على خشب منصوبة بطول الرصيف الممتد بين جدار الجامع والنهر حتى المصارة .

وكان من بين المصلوبين من الفقهاء يحيى بن مضر ، وهرب من المشتركين فيها يحيى بن يحيى ، وطالوت بن عبد الجبار ، وعيسى بن دينار ، وهم أعلام المالكية فى عصرهم ، أى أن الحركة فى صميمها دينية دعا إليها الفقهاء وأيدوها بما لهم من سلطان على الشعب ، ودليل ذلك ما يحكيه ابن سعيد ـ ملخصاً كلام ابن حيان فى المقتبس ـ من أن أهل الربض بلغ من استخفافهم بالحكم أن كانوا ينادونه ليلاً من أعلى صوامعهم : « الصلاة ، الصلاة يا مخمور ! »[١] . وقد فشلت هذه الثورة الأولى ؛ لأن الفقهاء دعوا إليها وألبوا الناس دون أن يتصدوا لحمل المسئولية، فوقع فى يد الحكم منهم من وقع وفر الباقون .

---

(١) المغرب لابن سعيد ، بتحقيق الدكتور شوقى ضيف ٤٣/١

وشعر الحكم بخوف شديد من أهل قرطبة بعد هذا الهيج الأول ، فاجتهد فى حماية قصره وتحصين البلد ، وفتح فى سوره باباً يؤدى إلى الأرباض الشرقية ، وكانت فيها معسكرات الجند ، واحتفر حول السور حفيراً ، وأصبح العداء بينه وبين رعيته سافراً(١) .

ويفهم من قطع النصوص الباقية لدينا أن شعور الناس نحو الحكم الربضى بعد هذه المحاولة الأولى كان شعورهم نحو حاكم فقد أهليته للحكم ؛ لأن الفقهاء صرحوا بذلك . وكان من الطبيعى أن يؤدى توتر الشعور بين الحكم ورعيته إلى انفجار ثان ؛ لأن أهل قرطبة لم يكونوا جماعة سهلة القياد ، وكان أشدهم حملة على الحكم أهل الربض الجنوبى وهو ربض شَقُندة ، وكان أشبه بحى للعمال وأهل الأسواق وغيرهم ممن يتأثرون بآراء علماء الدين ويعتبرونهم قادتهم ، وقد نفر منهم الحكم نفوراً شديداً ، وامتلأ صدره بالحقد عليهم ، وبادلوه هم هذا الشعور ، وتعرضوا له وأهانوه وهو عائد من ماردة فى العام الذى تلا المؤامرة (١٩٠/٨٠٦) فقبض على تاجر من زعمائهم ونفر آخر وصلبهم .

وفى نفس الوقت امتلأت قرطبة بجند الحكم واستطالوا على الناس ، ثم وقع الانفجار الحاسم فى ١٣ من رمضان ٢٠٢ / ٢٥ من مارس ٨١٨

LÉVI - PROVENÇAl, op. cit I, 163 - 164 . (١)

فقام أهل ربض شقندة وعامة قرطبة قياماً عامّاً على الحكم ، وكادوا يقضون عليه، لولا أن قيادتهم لم توفق إلى تثبيتهم أمام جند الأمير وقواده ، وانتهى الأمر بالقضاء على الحركة قضاء مروعاً ، فقُتل الألوف من الناس ، وقضى الحكم بإخلاء الربض من سكانه ، فخرجوا ألوفاً استقر بعضهم فى المغرب وسارت بقيتهم فى البحر ، ونزلوا الإسكندرية واستولوا عليها ، ثم انتقلوا إلى جزيرة أقريطش ففتحوها(١) .

ويهمنا هنا من حقائق هذه الحركة أمران : الأول أن نصيب الفقهاء فى ذلك الهيج الثانى ظهر بصورة واضحة : اتضح أن الذين تزعموا التمهيد له يحيى بن يحيى ، وطالوت بن عبد الجبار ، وعيسى بن دينار ، ومن إليهم ، وقد هرب أولئك الفقهاء الزعماء واستخفوا من بطش الحكم بهم . والحقيقة الثانية هى أن الهيج هز كيان الحكم هزاً شديداً وأشعره بضعف الأسس التى يقوم عليها ملكه ، حقيقة أنه تمكن من القضاء على الهيج ، ولكنه تبين بوضوح أن ملكه لا يمكن أن يقوم على القوة العسكرية

---

(١) اعتمادنا هنا على ، تاريخ إسبانيا الإسلامية ، لليفى بروفنسال (جـ١ ، ص١٦١ - ١٧٠) إلى جانب مراجعنا التى سبقت الإشارة إليها ، وذلك لأنه اعتمد على جزء المقتبس المفقود ، والذى لدينا منه يبدأ من أواخر أيام عبد الرحمن الأوسط ويمتد إلى قريب من نهاية إمارة الأمير محمد .

وحدها، وأنه فى حاجة إلى تأييد علماء الدين ؛ ليستعيد أهليته للحكم فى نظر رعيته ، ولكى يطمئن على مصير البيت الأموى .

ويذكر الرواة أن الحكم أصيب بعد هذا الحادث بعلة طاولته أربعة أعوام ، أى حتى وفاته ، والعلة نفسية أولاً ، ثم كان لها أثر على جسمه بعد ذلك ، ويقول ابن عذارى : إنه « تاب إلى الله متاباً ورجع إلى الطريقة المثلى ، وقال : إن الآخرة هى الأبقى والأولى ، فتزين بالتقوى ، واعتصم بالعروة الوثقى ، وأقر بذنوبه واعترف»[1] ؛ ومعنى ذلك أنه أقر بسلطان الدين وعلمائه ، وعول على أن يوثق علاقاته بهم ؛ ليكونوا عماد سلطانه .

***

---

(١) البيان المغرب ، ٢/ ٨٠ .